



دولة الإمارات العربية المتحدة
جامعة الوصل

مجلّة جامعة الوصل

متخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلّة علمية محكَّمة - نصف سنويَّة

(صدر العدد الأول في 1410 هـ - 1990 م)

العدد الثالث والستون

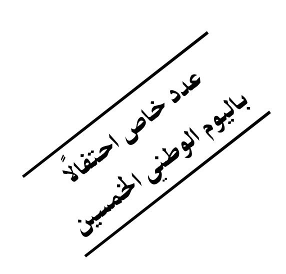
البريد الإلكتروني: research@alwasl.ac.ae
الموقع الإلكتروني: www.alwasl.ac.ae



63



ربيع الآخر - ديسمبر
1443 هـ / 2021 م





مَجَلَّةُ جامعة الوصل

متخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكَّمة - نصف سنويَّة

تأسست سنة ١٩٩٠ م

العدد الثالث والستون

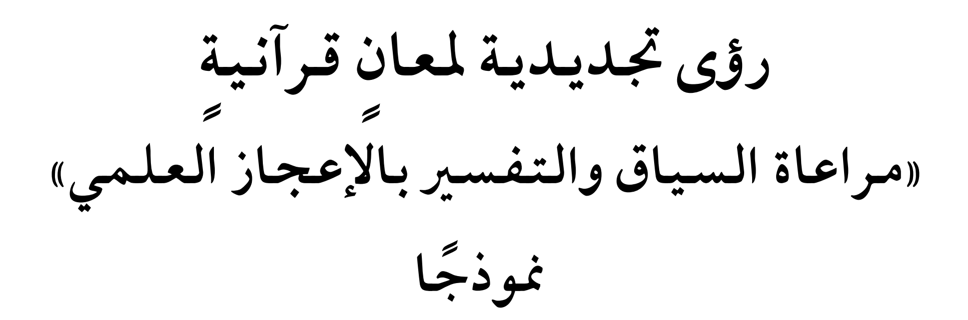
ربيع الآخر ١٤٤٣ هـ - ديسمبر ٢٠٢١ م

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩x

المجلة مفهرسة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

البريد الإلكتروني: awuj@alwasl.ac.ae, research@alwasl.ac.ae

المحتويـــــــــــات



رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية
«مراعاة السياق والتفسير بالإعجاز العلمي»
نموذجًا

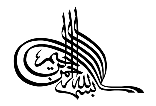
«Revival over Views for Reformation Quranic Interpretations, Consideration of the Account the Significance of the Context and Interpretation of the Scientific Miracle» - as a Model

د. مُحي الدين إبراهيم أحمد عيسى
جامعة الوصل – دبي – الإمارات العربية المتحدة

Dr. Mohi Eldin Ibrahim Ahmed
Alwasl University-UAE

https://doi.org/10.47798/awuj.2021.i63.09





ملخص البحث

التفاسيرُ القرآنيةُ تعدُّ ملجأً لطالبي معنى آياتِ الكتابِ العزيز، والتفاسيرُ اجتهاداتٌ بشريةٌ؛ لذا لم تخلُ من المعاني الدخيلةِ أحيانًا، الأمرُ الذي يستدعي وقفاتٍ نقديةً إزاءَ بعض ما قِيلَ من تلك المعاني بغرض تمحيصها، تجديدًا للديانة، وتنقية للتراث من المعاني غير المُرادةِ التي تسربتْ إليه بالتأويلات، فهذا إذن إشكالٌ بحثي استحثني لتسجيل جُملٍ بهذا الصدد تحت عنوان: (رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنيةٍ، مراعاة دلالة السياق والتفسير بالإعجاز العلمي نموذجًا) عُولِجَ في مبحثين اثنين، ولقد توسَّلَ الباحثُ لبلوغ بعض مرامي هذه الدراسةِ بالمنهجين (الوصفي، والتحليلي).

وثمَّة نتائج عديدة خلصَ إليها الباحثُ، وقد ذُكرتْ مفصلة في خاتمة الدراسة، وجلها يلتقي في أنَّ التصدي لتفسير كتاب الله العزيز مهمةٌ عزيزةٌ تتطلبُ إلمامًا تامًا بأدواتٍ تجمعُ أطرافَ المعارفِ، ولا يجبُ أنْ يُستثنى من الاضطلاع بها أحدٌ من المعاصرين وإلا فالاجتهاداتُ المُتولدةُ دونها سيكون بها ثغراتٌ علمية وعوارٌ فكري.

الكلمات المفتاحية: (تجديد - تفسير - دلالة السياق - الإعجاز العلمي للقرآن - جهنم ثقب أسود).

Abstract

References of Quranic Commentaries assuming the end destination for researches who seek the accurate meaning to the Holly Quran Verses, Since they are human attempts the foreign interpretations may accrue, and serious effort of criticism may required for screening the précised meaning, for acquaintance the purpose of perfect implementation of Islam and reviving the culture from misinterpretation that encourage the researcher to adopt this topic which bearing the title: " Revival over views for Reformation Quranic Interpretations, consideration of the account the significance of the context and interpretation of the scientific miracle "A Criticism Study". It consists of two semi chapters: that lead the researcher to emphasized descriptive and analytical methodologies, where he implies findings and conclusions reflecting implications that adaption the role to be Holy Quran Commenter should be inevitable to be qualified and acknowllagable at various areas of Shariah Sciences otherwise in the absence of such standards the researchers would be incapable.

Keywords: Renewal - Explanation - (Context indication. The scientific miracles of the Qur'an) - Hell is a black hole.



المُقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين، وآله وصحبه الميامين.

تقرَّرَ وتَمَهَّدَ أنّ كتابَ الله عزَّ وجلَّ هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريقَ إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه؛ وهذا كله كما قال الشاطبي: «معلوم لا يحتاج إلى استدلال»[1]. ولأنّ القرآن لم ينفك عن شيء من علومه ولا تفاسيره، ولن ينفك، إذن الحاجة دومًا تمس إلى إعادة النظر بالتأمل في هذا المضمار الحيوي الحي، ولئنْ كان من ضروراتِ التأمل الواعي الإفادة من المثمر النافع ؛ وهو كثير، فإنَّ اطّراحَ غيره مما جانبه الصواب وحالفه الغلط مما بث هنا أو هناك ليعد مهمة تجديدية جسورة، ولم لا؟ وهي جهود بشرية تخطئ وتصيب، ولطالما متسامحٌ به في الشريعة أن يخطأ «المجتهدون» إلا أنه من غير المسموح أبدًا أن يَروج خطأ بشري بيّن لتطال شرارته عقول المكلفين بتشويش فهمهم لكلام الرب المعصوم وإن صدر عن مجتهد فكيف حين يصدر عمن هم دون رتبة الاجتهاد؟

إنَّ من أخطر الأمور على العلم والديانة أن يروج الزائف من المعارف الدينية تحت عباءة العلم أو يتخفى من وراء ستار «التجديد» الذي هو أمر مشروع وثابت بالأصل؛ لا بل هو مطلبٌ شرعي ملحٌ حيثما وجدت دواعيه إذا مورس من أولي الشأن وفقًا لضوابطه، فهو حينئذٍ يثمر نفعًا عميمًا بتصويب معنى متوهَّم أو تصحيح خطأ أو افتراع حكم شرعي جدّ مناطه بنظر مقاصدي خفيَ على من سبق، أو غير ذلك مما قصد إليه المشرّع الحكيم حين فتح هذا الباب وأبقاه مشرَعًا

١- ينظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز وابنه، طبعة دار الكتب العلمية، (٣/ ٢٥٧).

بقولهﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يجدد لها دينها)[١]، فهذا برأسه هدف من أهداف هذه الدراسة الموجزة.

وإلى جنبِ ذلك فإنّ مما قد يؤسف له أنْ يدلفَ بعضهم إلى محرابِ القرآن، بين حين وآخر قاصدين أو ربما غافلين، فيختلسوا معانٍ اجتهادية غير راسخة، أو يطرحوا مفاهيم مشكوك في مصداقيتها العلمية ليبثوها في الرحاب القرآني المقدس، ربما بذات دعوى التجديد الزائف تصريحًا أو تلميحًا، لذا كان تجديد الديانة من خلال صيانتها بنقد التأويلات الجاهلة في التفسير - أو حتى غيره - عنها غدا أمرًا مبررًا ومشروعًا، وهذا أعده كذلك من أهم مقاصد وأهداف هذا الدراسة التي آمل أن يُدرج مضمونها ضمن معنى بعض ما بشر به رسول اللهﷺ في قوله: (يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين؛ وتأويل الجاهلين؛ وانتحال المبطلين)[٢].

تلك هي بعض الدواعي والأسباب المحفّزة لاختيار مناقشة فكرة هذه القضية التي اختير أنْ يكونَ: رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية، «مراعاة دلالة السياق والتفسير بالإعجاز العلمي نموذجًا» قراءة نقدية، عنوانًا لها، وسبب «الانتقاء» الوارد فيها للأداتين المذكورتين يعود إلى كون الفكرة المتصلة بتطبيقاتها واسعة جدًا وتفاصيل نماذجها أكثر اتساعًا، فالخوضُ في لجتها واستيعاب أطرافها جميعًا قد لا يناسب مقام النشر المتاح، فالعنوان إذن مقتضب ضمن حيز معين لدراسة قد تتسع لأكثر من بحث موجز يُسهب فيه بتتبع جزئيات ونماذج وتفاصيل أخرى مهمة تجلي الأمر بسعته على نحو أرحب. ومع ذلك فإنّ الانتقاءَ المذكورَ آمل أن يكون قد تنوع، بما يقيم أَوَد هذا البحث، بين اختيارات من تفاسير تراثية، وأخرى

١- رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، رقم:٤٢٩١، وصححه الألباني.سلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ / ١٩٩٦، رقم:٥٩٩.

٢- رواه ابن عبد البر بسنده عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (١ / ٤٩).

من كتابات معاصرة، هي وإن لم ترق إلى مقام معنى تفسير آي الكتاب العزيز بالمعنى المعهود والدارج لمصطلح «تفسير» إلا أنها وطيدة الصلة به لكونها تروم لدى أربابها بيانًا ما لآي الكتاب العزيز.

وضمن السعي لإنجاز الفكرة على النحو المذكور من الاجتزاء طرق الباحث موضوعه بالنظر الناقد لبعض تلك «الاجتهادات التفسيرية» مما له صلة «بالنظر في دلالة السياق، والتفسير بالإعجاز العلمي»، بوصفهما نموذجين لأداتين من أدوات التفسير واقع بعضهم فيهما أخطاء علمية ومنهجية عند محاولات تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم.

- والباحث لإنجاز تحرير هذه الفكرة يتوسل بالمنهجين الوصفي والتحليلي دون إغفال للاستعانة بالمنهج الاستقرائي، مؤملًا الوفاء بالغرض كما تتطلبه مقتضياتُ قواعد البحث العلمي، والله المستعان ومنه التوفيق والتسديد والإعانة.
- ولئلا يكون صلب الدراسة تكرارًا لجهد علمي مبذول فقد ذرعت ما هو كائن من الدراسات في هذا الصدد بالمطالعة فألفيتها عديدة بين كتاب وبحث منشور سواء ما تعلق منها بدلالة السياق أو اتصل بالإعجاز العلمي للقرآن، ومن ذلك على سبيل المثال:

أ- دراسة بعنوان السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني: د. خليل خلف بشير. بحث محكم نشر في مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد (٩)، عدد(٢)، ٢٠١٠م.

تناولت السياق وبيان أنماطه وتطبيقاته في القرآن الكريم على نحو عام يجلي المفهوم العام للسياق.

ب- دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير: للباحث عبد الحكيم عبد الله القاسم، وهي رسالة ماجستير طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٩٩ م.

وهي كسابقتها أدالت الحديثَ حول المفهوم العام وتطبيقاته المساندة.

ت- السياق القرآني وأثره في التفسير: د. أحمد ماهر سعيد، بحث محكم منشور في مجلة جامعة الأزهر.

ث- عناية ابن عاشور بالسياق وأثره في تفسيره التحرير والتنوير: د. إبراهيم سعيد دويكات، بحث منشور في مجلة جامعة المدينة العالمية، عدد (١٠)، ١٤١٤ه.

ج- الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان: د. راشد سعيد شهوان، دار المأمون للنشر، (د.ت).

تناول فيه جانبَ القيود الضوابط الشرعية لإحكام استعمال الإعجاز العلمي في تفسير الوحي لئلا ينفرط العقد في هذا المضمار.

فهذه الدراساتُ السابقة كلها كما هو واضح من عناوينها تتحدثُ عن أصل القضيتين المذكورتين من حيث بيان الماهية أو التأصيل والضوابط والتطبيقات الكاشفة للمعنى، وهي وإنْ التقت مع الدراسة في عمومات إلا أن هذه الدراسة لا تعرج إلى شيءٍ مما هناك بل تفردت بتتبع تفصيل قضايا محددة ومسماة لنموذجي دلالة السياق والإعجاز العلمي بنظر ناقد يناسب مقام النشر، ومن ثم انتهت إلى نتائج مغايرة تمامًا لنتائج الدراسات الأخرى.

- والدراسة بالأصالة تستهدفُ أشتاتًا من الآراء والاتجاهات ذكرت في معرض بيان معان للقرآن الكريم أو كشف علومه، مما قيل قديمًا أو حديثًا، بالتقويم أو النقد البنّاء محاولًا فحص مدى دقتها أو صحتها أو حتى كشف زيفها،

وذلك من واقع أداتي التفسير: النظر في دلالة السياق لبيان المعنى، وتفسير القرآن بالإعجاز العلمي والتقني.

- إنّ أصولَ محاور عنوان هذا البحث يمكن إرجاعها في سياق الإيجاز إلى مبحثين موسومين بالعنوانين الآتيين:

- المبحث الأول: رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية، «مراعاة دلالة سياق التنزيل» نموذجًا.

- المبحث الثاني: تقويم رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية، «الإعجاز العلمي» نموذجًا.

إنّ هذا البحثَ لا يدعي كمالًا في بدايتِه ولا منتهاه، بل لا يعدو أنْ يكونَ مشاركةً محدودةً يأمل كاتبها إنْ هي اجتمعت إلى غيرها الصحيح ربما شارفت الكمال؛ فأفادت ونفعت في بابها إذا شاء الله، فإنّ المعارفَ يكاملُ بعضُها بعضًا.

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين.

المبحث الأول:

رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية، «مراعاة دلالة سياق التنزيل» نموذجًا

مراعاة دلالة سياق الآيات وغيرها من دلالات السياق[1] عند تفسير القرآن للوصول إلى المعنى المراد هو أصل مهم من أصول التفسير، وقد عدَّه الباحثون نوعًا من أنواع تفسير القرآن بالقرآن، بل هو من المهمات، قال الشاطبي في تقرير ضرورته:»...فالذي يكون على بال المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإنَّ القضيةَ وإنْ اشتملت على جمل؛ فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع من فهم المكلف. فإن فرّق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى الكلام نفسه...، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب النزول؛ فإنها تبيّن كثيرًا من المواضع التي

١- السياق: في اللغة من ساق يسوق سوقًا، له معان منها: التتابع أو الإيراد، وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه.
ينظر: مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط، مادة «سوق»، ط٣ (د. ت)، (١ / ٤٨٢).
وفي الاصطلاح: هو بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقة بأي جزء من أجزاء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، وهو ما يسمى بالقرينة الحالية.
ويعتبر السياق نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة تماسكا ومنهجية، وهو إما سياق نص: وهو توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب، أو سياق موقف: وهو توالي العناصر التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال.
وللسياق أهمية بالغة إذ يقوم بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها. السياق القرآني إما داخلي وإما خارجي ولكل منهما أقسام عديدة، واعتبر من قبيل تفسير القرآن بالقرآن.
ينظر: د. محمد سالم صالح. أصول النظرية السياقية الحديثة، دون بيانات نشر، صفحة (١). م. د. خليل خلف بشير. السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، بحث محكم نشر في مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد (٩)، عدد(٢) ٢٠١٠م.

يختلف مغزاها على الناظر»[١].

إنّ الالتفاتَ إلى سياق النص ينبعُ من جهةِ أنّ «السياق» هو أداة كاشفة للمراد المحتمل لعبارات المتكلم؛ أو كونه مبيِّنًا لا غنى عنه في تجلية معنى للنص القرآني الكريم الذي قد يكون دون ذلك حمّالًا لأوجه أخرى غير مرادة، كما هو فحوى حديث الشاطبي، بما يعني أنّ إهمال العناية «بالسياق» رغمًا عن أهميته التي أشار إليها الشاطبي، تعني في بعض نتائجها خسارة لمضامين معرفية مهمة لكثير من آي الكتاب الخالد، أو بالعكس ربما وقوع في الغلط أو المغالطة، بحسب رأي ابن القيم، الذي قال في بيان أهمية مراعاته ًوخطر إهماله: «والسياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل؛ والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة. وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله: «ذُقْ إِنَكَ أنتَ العَزيزُ الكريمُ» كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير»[٢].

ويمكننا رصد نماذج يسيرة لبعض أهل التفسير لتوضيح معنى جديد جدير لأن يُثبت من خلال الاستعانة بدلالة بعض أنواع السياق:

النموذج الأول:

فعلى سبيل المثال فإنّ الحافظ ابن كثير «رحمه الله» وظّفَ دلالة السياق توظيفًا مثاليًا في مواضع كثيرة من تفسيره عند محاولاته تصحيح معنى مغلوط يورده بعضهم في معاني بعض الآيات القرآنية، ومن ذلك على سبيل المثال صنيعه في سورة مريم؛ إذ وظف من دلالة السياق: سياق النص والحال، والسياق الزماني، ليرجِّح بدلالة الأول أنّ وراثة الأنبياء الوارد ذكرها في الآيات هي وراثة نبوة

١- الشاطبي: الموافقات، (٤ / ٢٦٦).

٢- محمد أبو بكر بن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، تحقيق محمد الإسكندراني وعدنان درويش، دار الكتب العربي، ط١ / ١٤٢٢ هـ، (٤ / ٨١٥)

وعلم لا وراثة مال، بدلالة ما كان معروفًا عن واقع حال نبي الله زكريا «عليه السلام» أنه لم يكن ذا مال؛ بل كان نجارًا يكسب من عمل يده، ويؤكده بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: «لو كان في المال لما خصّه من بين إخوته بذلك؛ ولما كان في الإخبار به فائدة»[١]، فانتفت الشبهة الواردة على معنى الآية وهي كيف يورث وهو نبي والأنبياء لا تورث كما جاء في حديث مالك بن أوس أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:(لا نورث ما تركناه صدقة)[٢].

أما دلالة السياق الزماني ففي معرض تضعيفه لمزاعم محمد بن كعب القرظي مقالته أنّ مريم كانت أختًا لهارون فهي أخت لموسى «عليهما السلام»! قال: «وهذا القول خطأ محض، فإنّ الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل؛ فدلّ على أنه آخر الأنبياء بعثًا وليس بعده إلا محمدﷺ... ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي لم يكن متأخرًا عن الرسل سوى محمدﷺ، ولكان قبل سليمان وداود «عليهما السلام»، فإنّ الله قد ذكر أنّ داود بعد موسى «عليهما السلام» في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ... ﴾ سورة البقرة: الآيات (٢٤٧: ٢٥١)[٣].

ومن هذا القبيل كذلك ما أورده ابنُ كثير أيضًا في معرض رده على مزاعم يهود* أنّ الذبيح هو نبي الله إسحق وليس إسماعيل، عليهما السلام، وهو رأي تسرب إلى بعض علماء المسلمين، وهذا الرأي وإن كانت له بعض المتمسكات

١- ينظر: إسماعيل بن كثير. تفسير القرآن العظيم، طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت، (٣/ ١٤٤٤).

٢- رواه مسلم. باب حكم الفيء، ح ١٧٥٧، تحقيق محمد فؤاد، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (٣/ ١٣٧٦)

٣- ينظر: إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٣/ ١٤٥٢).

الظاهرة إلا أنّ كل الدلائل الحاسمة تشير بوضوح أنّ الذبيح هو نبي الله إسماعيل، وما يعنينا منها الآن هو دلالة السياق الزماني المؤكد للقول الراجح في المسألة، ذلك أنّ إسماعيل هو الابن الأكبر لنبي الله إبراهيم وقد ابتلي بمحبته فكان البلاء في الأمر بذبح الأكبر أعظم منه في غيره من الولد[1]، قال ابن كثير:(وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْحَاقُ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، حَتَّى نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَيْضًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَمَا أَظُنُّ ذَلِكَ تُلقى إِلَّا عَنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأُخِذَ ذَلِكَ مُسَلَّمًا مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ. وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ شَاهِدٌ وَمُرْشِدٌ إِلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْبِشَارَةَ بِالْغُلَامِ الْحَلِيمِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ الذَّبِيحُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. وَلَمَّا بَشَّرَتِ الْمَلَائِكَةُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ قَالُوا: ﴿ ...إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ الْحِجْرِ:٥٣. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ هُودٍ:٧١، أَيْ: يُولَدُ لَهُ فِي حَيَاتِهِمَا وَلَدٌ يُسَمَّى يَعْقُوبُ، فَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَقِبٌ وَنَسْلٌ. وَقَدْ قَدَّمْنَا هُنَاكَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَهُمَا بِأَنَّهُ سَيُعْقِبُ، وَيَكُونُ لَهُ نَسْلٌ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِهِ صَغِيرًا، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ هَاهُنَا بِالْحَلِيمِ؛ لِأَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِهَذَا الْمَقَامِ)[2].

والخازن في لباب التأويل استدعى السياق الزماني لتأكيد كون الذبيح هو إسماعيل، فكان من حججه أن أورد أثرًا، ختم به بحث المسألة، عن الأصمعي قال:(سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال يا

١- ✱ تحريف الكلم عن مواضعه هو دين يهود وديدنهم، والذي حملهم على هذا القيل هو الحسد لولد إسماعيل أن يكون فيهم شرف الفداء الثابت لجدهم، فأرادوا بتحريف حقائق التأريخ إثبات شرف ليس لهم وادعوه لجدهم إسحاق (عليهما السلام) وكلهم نبي مرسل لا نفرق بين أحد منهم، لكن المنزلة والفضل يثبتان لأي منهم بالبرهان لا بالدعاوى الزائفة، وهو محل البحث.
ينظر: إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٦). عبد الرحمن بن سعدي. تيسير الكريم الرحمن، تحقيق عبد الرحمن المعلا، مؤسسة الرسالة، ط١/ ٢٠٠، ص (٧٠٦).

٢- إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٦).

أصمعي أين ذهب عقلك! متى كان إسحاق بمكة، إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه)[١].

النموذج الثاني:

هو لأبي بكر بن العربي المالكي «رحمه الله»، فقد كان من أثر مراعاته للسياق أن وظفه على طريقته من ضرورة مراعاة سياق واقع الحال ولوازمه، ملتفتًا إلى إعمال مقاصد الشريعة ومراعاة مآلات الأمور دون أن يحبس نفسه عند مقتضيات ظاهر النص على أية حال كانت نتائج ذلك، وهذا لعمري من أولى أولويات مراعاة معاني التجديد عند التأليف، وذلك بتجنب النقل الحرفي عن المذهب، أو حتى الوقوف عند ظاهر النص، دون مراعاة لواقع حال المستفتي أو القضية، وقد تنبَّه ابن القيم إلى ضرورة مراعاة الفقيه لواقع حال القضية فقرر بناءً عليه عدم إلزام مَنْ حلف بصوم شهرين متتابعين لعدم وجدان مَنْ يفعل ذلك من بين أهل زمانه فالفتيا بظاهر القول دون مراعاة واقع الحال هو أمر غير سائغ كما قال:» فليس في عرفنا اليوم الحلف بصوم شهرين متتابعين فلا تكاد تجد أحدًا يحلف به، فلا تسوغ الفتيا بإلزامه، قالوا وعلى هذا أبدًا تجيء الفتاوى في طول الأيام، فمهما تجدد العرف فاعتبره ومهما سقط فألغه ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك وسله عن عرف بلده فأجْرِه عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدًا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين»[٢].

١- علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر المعروف بالخازن (ت:٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ / ١٤١٥ه، (٤ / ٢٢).

٢- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: إعلام الموقعين، دار الجيل- بيروت، ط / ١٩٧٤، (٣ / ٧٨). والقرافي، أحمد بن إدريس، الفروق، د.ت، (١ / ١٧٦ ، ١٧٧).

ومن أمثل ما يبرهن على مراعاة هذه الخصيصة هي ما نزع إليه المُفَسِرُ والفقيه المالكي عند تعليقه في كتاب أحكام القرآن على آية الحرابة من سورة المائدة حيث ذكر حكاية تجسّد هذا المعنى التجديدي إذ قال: «ولقد كنت أيام تولية القضاء قد رفع إليّ قوم خرجوا محاربين إلى رفقة؛ فأخذوا منهم امرأة مغالبة على نفسها من زوجها، ثم جد فيهم الطلب فأخذوا وجيء بهم، فسألت من كان ابتلاني الله به من المفتين، فقالوا ليسوا محاربين؛ لأنّ الحرابة إنما تكون في الأموال* لا في الفروج. فقلت لهم: إنا لله وإنا إليه راجعون! ألم تعلموا أنّ الحرابةَ في الفروج أفحشُ منها في الأموال، وإنّ الناس كلهم ليرضون أن تذهب أموالهم وتُحْرَب من بين أيديهم ولا يُحرب المرء من زوجته وبنته. ولو كان فوق ما قال الله عقوبة لكانت لِمَنْ يسلب الفروج. ثم قال: وحسبكم من بلاء صحبة الجهال؛ وخصوصًا في الفتيا والقضاء»(1).

إنّ الأمر الذي حمل ابن العربي على الاسترجاع متعجبًا من هؤلاء القوم هو أسفه لهم تغييبهم استصحاب العناية بدلالة السياق وإهماله، وهو ما أوقعهم في الغلط في النظر والمغالطة في مناظرة شيخهم، وهي النتيجة التي ألمح إليها ابن القيم محذرًا في النقل المذكور عنه آنفًا.

ولأجل هاتيك الأهمية فإنّ القرافي ضمّن هذا المعنى في فروقه؛ وقرره عند حديث له عن ضرورة مراعاة تغير أو بقاء معنى معين قيل في سياق زماني ما، أعني بذلك مراعاة الأعراف السائدة والعادات المستحكمة التي كانت أساسًا لفتوى أو اجتهاد سلف، ولما كانت الأعراف شأنًا متحولًا من وقت لآخر والعوائد وقائع تتغير من بلد لآخر، فإنّ السهو أو الغفلة عن مراعاتها عند محاولات الإفادة

* هذا على ظاهر المذهب المالكي. ينظر: محمد بن محمد الحطاب. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر- بيروت، ط٣/ ١٩٩٢، (٦/ ٣١٤).

١- أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ، (٢/ ٩٥).

من تصورات السابقين وأحكامهم ذات الصلة بها توقع صاحبها في مغالطات منهجية غير أمينة، وهو الأمر الذي واقعه كثيرون بحسب تقديرات القرافي: «فقد غفل عن ذلك كثير من الفقهاء، ووجدوا الأئمة الأوَل قد أفتوا بفتاوى بناءً على عوائد لهم وسطروها في كتبهم بناءً على عوائدهم؛ ثم المتأخرون وجدوا تلك الفتاوى فأفتوا بها وقد زالت تلك العوائد، فكانوا مخطئين خارقين للإجماع، فإن الفتيا بالحكم المبني على مدرك بعد زوال مدركه خلاف الإجماع، ومن ذلك لفظ الحرام، والخلية، والبرية، ونحوها مما هو مسطور لمالك أنه يلزم به الطلاق الثلاث بناءً على عادة كانت في زمانه؛ فأكثر المالكية يفتي اليوم بلزوم الطلاق الثلاث بناءً على المنقول في الكتب عن مالك، وتلك العوائد قد زالت، فلا نجد أحدًا اليوم يطلق امرأته بالخليّة، ولا بالبريّة، ولا بحبلك على غاربك»[1].

المبحث الثاني:

تقويم رؤى تجديدية لمعانٍ قرآنية، «الإعجاز العلمي» نموذجًا

هاهنا لونٌ آخرٌ لرؤى تجديديةٍ تنبثقُ من الاستعانة بالحقائق العلمية والاكتشافات المعرفية التي ذخر به هذا الزمان وبزَّ فيه غيره من الأزمنة، وبات كثيرٌ منها مسلّمات يقينية أو قريبةً من ذلك، فهل بالإمكان مراعاتها واستدعائها لتقديم أفكار تجديدية للكشف عن معاني بعض النصوص الشرعية لا سيما بيان آيات من القرآن الكريم؟ وهو ما عرف بالإعجاز العلمي للقرآن. وهل كل المسالك الاجتهادية التجديدية ذات الصلة بذلك قد حالفها الصواب فيما رامته؟

إنَّ متفهمَ الكلام الرباني لا يجب أن يغيب عنه الإفادة من المنجزات والحقائق العلمية الثابتة، فلا يليق في حقه أن يزهد عن توظيف الصائب والمستيقن مما جد

١- أحمد بن إدريس القرافي: الفروق، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ / ١٤١٨هـ، (٣ / ٢٩٨).

في سائر العلوم انفعالًا بآراء تراثية تحفظت على ذلك. فالمعارف والعلوم اليوم قد بلغت شأوًا بعيدًا في الكشف عن الأسرار. ولم لا يصح ذلك والقرآن معجزة الله الخالدة قد ألمح أو صرَّحَ بكثير من الحقائق العلمية المكتشفة في عديد من المجالات كالفلك، والطب، وعلم الأجنة، وأسس علوم الاجتماع، والاقتصاد، وغيرها مما اصطلح على تسميته «بالإعجاز العلمي».

نعم وَقَعَ نزاعٌ في اعتبار صحة هذا اللون الاجتهادي وجدواه في بيان معنى لآيات الكتاب العزيز[1]، ولكنّ الاستعانة بالمكتشفات المادية الصحيحة والمفاهيم الثابتة الحديثة كأداة مهمة لمعرفة بعض معاني النص القرآني ودلالاته لا ينبغي، في رأي الباحث، أن تكون موضع جدل بين فرقاء يقفون بين طرفي نقيض في أصلها؛ بين مانع بإطلاق أو مجيز بإطلاق، لعِلّة أنّ النص خطاب، والخطاب الإلهي نزل ليفهم، فأي أداة معرفية صحيحة تفضي لفهم سديد للنص يتعين استثمارها، وإنسان هذا الزمان يفيده تضمين المنجز الإنساني المبرهَن كثيرًا في الكشف عن معاني الكتاب العزيز وحقائقه كما دلت عليه التجربة؛ فالمنجز الحضاري المتيقن يقرب له المعنى ويبينه لا بل يجسده كأنّه العيان، إنّ مخاطبة المكلفين بأدوات ومنطق وبيان وأسلوب يفهمونه هي منهجية تطابق حكمة الكتاب: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ سورة إبراهيم: (٤)، واللسان في الآيةِ اللغةُ، وكل ما يحصل به مقصود الخطاب[2] من إفهام وإدراك المعاني وبيانها؛ لتظهر وتتكشف لدى المدعو ويحصل التصديق وينتفي التكذيب بسبب رداءة البيان أو عيّه، ولأجل هذا المعنى طلب موسى عليه السلام من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليكون له ردءًا يصدّقه، يصدقه لا ليقول صدقت أو يقول للناس

١- يفهم من كلام الشاطبي أنه يمنع من ذلك، أو يتحفظ على الاستعانة بغير أدوات التفسير المتعارف عليها بين العلماء؛ كعلوم اللغة، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، في تفسير القرآن. ينظر: الشاطبي. الموافقات، (٤ / ١٩٨).

٢- ينظر: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م، (١٣ / ١٨٥).

صدَق موسى، بل كما قال الزمخشري: «ليلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدّق القول بالبرهان، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1] سورة القصص: (٣٤).

إنّ الزرقاني في مناهل عرفانه قد نص على جواز الاعتداد بالإعجاز العلمي، ففي سياق تعداده «لشروط المفسر» أشار إلى ضرورة معرفة أحوال البشر وطبائعهم، والسنن الاجتماعية الحاكمة لحصول العز، والذل، والغنى، والفقر للمجتمعات[2]، وقال بصريح العبارة: «ومعلوم أنّ المُفسِرَ لا يفسرُ لنفسه، وإنما يفسرُ للناس، فكان من الواجبِ أن يساير أفكارهم، ويشرح ألفاظ القرآن في الظواهر الطبيعية، والعلمية، وسنن الله الكونية، وقوانين السياسة، والاجتماع، وقواعد الاقتصاد، والأخلاق...يجب على المفسر أن يشرح ألفاظ القرآن في ذلك كله، وفيما يشبهه بالطريقة العلمية المألوفة لهم...وإلا فما بلّغ رسالته ولا أدى أمانته وكيف يخاطب العالَم بغير ما يفهمون...إلخ»[3].

ومثل ذلك يفهم من الشيخ السعدي حينما عدّ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ الإسراء: (٩)، قاعدة بذاته في تفسير القرآن، وأنشأ يشرح المسألة قائلًا: «ما أعظم هذه القاعدة والأصل العظيم الذي نُص عليه نصًا صريحًا وعمم ذلك ولم يقيده بحالة من الأحوال، فكل حال هي أقوم في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية والدنيوية، فإنّ القرآن يهدي

١- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي بيروت، ط: ١٤٠٧ هـ، (٣/ ٤٠٩).
٢- ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان، طبعة البابي الحلبي، (١ / ٥٢١).
٣- المرجع نفسه، (١ / ٥٦٧).

إليها ويأمر بها ويحث عليها . . .إلخ»[1]، فلازم هذا جواز الاستئناس بالمكتشفات لبيان معنى تحتمله الآيات القرآنية.

إنّ الجدلَ والخلافَ في المسألة - في محلها المحرر- بات، في رأي الباحث، نظريًا لا ثمرة له، طالما أنّ الواقع المعاصر قد كشف عن جدوى أصل هذه المنهجية في صورتها المتوازنة غير المتعسفة أو المغالية كما ذهب إلى ذلك بعضهم، والوقوع دليل الجواز.

إذن قراءة بعض النصوص القرآنية على ضوء التوضيحات «التقنية» اليقينية التي كشف ويكشف عنها العلمُ التطبيقي يمكن أن تكون وسيلة وأداة تجديدية مهمة، وبالإمكان أن تضاف إلى الأدوات المعروفة في هذا الصدد، فعبرها تتكشف معاني وحكم لولاها كانت طمرًا في الغيب، فلا ريب إذا كان الأمر بهذه المثابة أن تكون بعض حقائق العلم المادي الحديث أحد المعينات على التدبر التام للنص القرآني تناسب ذهنية إنسان هذا الزمان ليفهم كلام الباري الذي أنزله بصائر وهدى للناس أجمعين، نكرس بهذا الصنيع مفهوم أنّ كتاب الله تعالى هو مصدر هداية وإشعاع وتنوير يؤسسُ لحضارة إنسانية راقية و»متعقلة».

وفي محاولة لإثبات هذه النزعة التجديدية لفهم القرآن لنستشهد وننقل حديث المجرِّب في واحد فقط من موضوعات الكتاب العزيز ذات الصلة، قَالَ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: «إنّ علماءَ الشريعةِ بحاجةٍ ماسةٍ إلى خبرة رجال العلم والأحياء والهيأة هكذا في المطبوع والجيولوجيا . . .ليبصروهم بمفهوم صحيح أو راجح لعدد من نصوص الشريعة المطهرة . . . ولست بهذا أزعم أنّ رجال العلم سيعبّرون عن مراد الله بيقين لا شك فيه رافع لكل احتمال، لا أزعم هذا مطلقًا، ولكني أجزم بأنّ أقوال رجال العلم المادي سبيل من سبل الاجتهاد

١- عبد الرحمن بن سعدي: القواعد الحسان في تفسير القرآن، ص(١٠٥).

وفيها اليقيني والراجح؛ لأنها تكشف عن معهود حسٍ، والمعهود الحسي من أهم طرق اليقين أو الرجحان.

والعلم المادي، إذا صَحَّ يقينًا أو رجحانًا، زيادة علم يكمل أداة المفسر في الاجتهاد؛ ويجب أن يُنْفى به كثير من تخرّص المفسرين في أحكام لم تسند إلى رسول اللهﷺ بطريق قطعي أو راجح، ولم يوجبها فهم لغوي لا احتمال فيه، ولم يوجبها قطعيات معروفة من الدين بالضرورة، وليست عن حقائق غيبية لا يهتدي إليها العلم البشري. وإيمان المسلم بأنّ الاجتهاد في الدين لا ينقطع، وبأنّ القرآن لا تفنى عجائبه، وبأنّ في القرآن خبرًا عما لم يقع بعد أو لم يحصل العلم به حسًا بعد، كل ذلك يعني ضرورة الاهتداء بأقوال العلم المادي في فهم بعض أحكام القرآن لا في تأسيسها.

وحَضَّ القرآنُ الكريمُ على الاعتبار والتدبر يعني أنّ العقلَ البشري بوسائله الحسية والعلمية طريق إلى فهم الشرع، ولكنه ليس طريقًا للاقتراح على الشرع أو تأسيسه، لأنّ خالق العلم هو منزل الشرع، فالمنطق أن يكون: خلق منزّل الشرع كاشفًا لحكم الشرع؛ غير مؤسس له ولا مقترح عليه.

وإنَّ من أوجب الواجباتِ على كل مؤسسة علمية للدعوة والإرشاد أن تستقطب رجال العلم المادي وتدون مختلف فتواهم في القضايا العلمية التي ورد الإيماء إليها في الشرع، ثم تترك لعلماء الشريعة العمل المخلص الجاد في إحلال الصحيح من تلك الفتاوى العلمية المادية محلها من تفسير القرآن وشروح الحديث.

وكل نص شرعي تعددت الاحتمالات في فهمه، وكان من بين هذه الاحتمالات ما هو مبني على الإسرائيليات والحكايات، أو التأويلات التي لا تقرها اللغة، أو الاجتهادات المرسلة أو الذوقية: فواجب أن تتزحزح - ترجيحًا لا قطعًا - بحقائق

العلم إذا أيَّدَها مدلولُ اللغةِ العربيةِ.

وبلا أدنى مبالغة أقول إنّ مكتبتي الحافلة بأمهات التفسير ما بين مطبوع أو مصور عن مخطوط لم يشفني في فهم هذه الآية الكريمة*، كما شفتني اللحظة الماتعة التي تألق فيها الدكتور الزفزاف - وهو مختص في علم الحشرات - وإليكم البيان. . .إلخ»[1]، وقد أشارَ في بيانه إلى معاد الضمير في قوله «فيه شفاء»، ومدلول التنكير في «شفاء»، ومدلول التأنيث في خطاب الله للنحل، إلى آخر ما هناك من الفوائد التي ربما لم يشر إليها أهلُ التفسير المتقدمين، وكلها مستفادة من علم الحشرات في بحوثه وتجاربه المعاصرة المعنية بدراسة أسرار حشرة النحل والتي زودتنا بمعنى يرجح أحد طرفي اختلاف المتقدمين في بعض معاني الآية الكريمة محل البحث، كما في اختلافهم في معاد الضمير[2].

إنّ هذه الأداة وهذا المنزع التفسيري المهم لا يجب أن ينتهي دوره عند الحد الذي يُكسبنا فيه علمًا جديدًا لأبعاد نص قرآني كريم، أو يتحفنا بكشف معنى في الكتاب العزيز لم يظهر بتمامه من قبل، بل يمكن أن يوظف أيضًا لننفي عن الكتاب أغلاط بعض المفسرين القدامى والتي وقعوا فيها جراء تواضع العلوم التقنية يومئذٍ، وهذا هو الشق الآخر في المسألة، ولتقريب الفكرة يحضرنا، على سبيل المثال، ما وقع فيه الفقيه المالكي ابن العربي[3] «رحمه الله» حين ذهب «يستنبط» من قول لله تعالى معنى خطيرًا تدحضه حقائق العلم اليوم حين ادعى تكفير مَنْ

١- * يقصد قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل: الآية (٦٩).
أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: نوادر الإمام ابن حزم، مطابع الفرزدق- الرياض، ط١/ ١٤٠٥هـ، (٢/ ٢٧٥).

٢- ينظر: المرجع نفسه، (٢/ ٢٧٥).

٣- أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي: فقيه مالكي، ولد ٤٦٨هـ، كان رئيسًا محتشمًا وافر الأموال، صاحب تصانيف عديدة، يقال إنه بلغ رتبة الاجتهاد، توفي بفاس ٥٤٣هـ. ينظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، ط ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، (١٥/ ٤٢).

قال: «إنه يعلمُ ما في الأرحام»، وتعزير مَنْ ادعى «معرفة وقت الكسوف»؟! وابن العربي بحسب ظنه قد «استنبط» بعض هذا الرأي من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ لقمان: (٣٤)، ونص عبارته «رحمه الله»، بعد توضيحه أنّ الآية اشتملت على مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمهن إلا الله، هو كما يأتي: «ومَنْ قال إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر...فأما مَنْ أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا يؤدب ويسجن ولا يكفّر. أما عدم تكفيره؛ فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يُدرك بالحساب، فلحسابهم له توقف علماؤنا عن الحكم بتكفيره. أما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامة؛ فتشوش عقائدهم في الدين، فأدبوا حتى يُسرّوا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به»[1].

هذا كلامه (رحمه الله) غير أنّ التقنية العلمية الطبية والفلكية اليوم قد أفصحت عن إمكان شيء من ذلك، وأخرجته من عالم الغيب المكنون بسبب من تواضع المعرفة يومئذٍ إلى عالم الشهادة✸.

إنّ وجودَ مثل هذه الأقاويل بوصفها تفاسير لنص القرآن الكريم، لا ريبَ يدخلُ الشرعة بكاملها في مأزق خطيرٍ جدًا في هذا الزمان من البعض، حيث إنه يمكن استغلالها للترويج المغرض لتثبيت مغالطة «معارضة المنقول للمعقول» واتهام الشرع بما لا يليق من أنه عدو للعلم؛ فيجب استبعاده من معترك حياة هذا الزمان! وهذا ما يتعين علينا دحضه لا بنفي مثل هذه التهم في ذاتها وحسب؛ بل بنفي مثل هذه الأقاويل وإبطالها، وتبرأة الكتاب العزيز أنْ تُنْسَبَ إليه فضلًا أنْ تكونَ تفسيرًا لآياته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

١- أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، باختصار يسير جدًا، (٢ / ١٩٣ - ١٩٤).

✸ المقصود الغيب النسبيٍ، وحاشا لله أن يكون المعنى أنّ الغيب المطلق الذي اختص الله بعلمه أن ينكشف بفعل العلم التجريبي مثلا، فهذا غير مراد أبدًا، وإنما المقصود ما ينكشف من المعاني المعجزة للقرآن على مرِ الأزمانِ بحسب الحالِ مصداقًا لقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آياتنا في الْآفاقِ وَفي أَنْفُسهِمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فصلَت: (٥٣)، قال ابنَ عاشور: «وَفي هَذِهِ الآيَةِ طَرَفٌ مِنَ الْإِعْجَازِ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ» الطاهرَ بنَ عاشور: التحرير والتنوير، (٢٥ / ١٨).

وفي رأي الباحثِ أنَّه مهما وُجِدَ شيءٌ من ذلك في كتب التفاسير والتراث وجب رده وبيان غلطه، إحقاقًا للحق وصيانة للديانة، مع الاحتفاظ بمقامات علمائنا المتقدمين الذين قالوا ما قالوه بحسب ما توفر لديهم من ظنون المعارف المرجوحة مما كان متاحًا آنذاك؛ ولو بُعثوا وأدركوا هذا الزمان وما نجم فيه من حقائق العلوم حتمًا عجبوا لما قالوه، ولأنكروا ما ذُكر عنهم وأحدثوا في ذلك رأيًا آخر. وفي التفاسير شيء من ذلك، ولعل ابن القيم كان يقصد عين هذا المعنى من عبارته: «وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله»[١].

ولئنْ كان الناسُ في هذا المسلك نوعين: مَن توسط منهم طالبًا بلوغ مرمى حسنٍ بعرض الشريعة في ثوب عصري فأفلح فيما ذهب إليه؛ فجلّى فهمًا غامضًا أو كشف عن معنى غاب كما هو النموذج الذي حكاه ابن عقيل أو غيره مما في معناه.

ولكن منهم نوع ثانٍ تحامل على النصوص وحمّلها في بعض تأويلاته ما لا تحتمل، فواقع أغاليط منهجية أفسدت عليه بعض ما رامه من المقاصد الحسنة.

وفي عجالةٍ ناقدةٍ تناسبُ المقام يجدر أن نقف عند نموذج لهذا النوع الثاني نؤكد به هذه الحالَ من جهة، ومن جهة أخرى نفحص ذلك ناقدين، وليكن ما ورد في الفصل الثالث* من كتاب «هل جهنم ثقب أسود؟ القيامة في ضوء العلم

١- عبد الرحمن بن سعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص (١ / ٢٦).

* إنّ النقد المتصل بمنهجية التعاطي مع هذه المسألة في هذا الجزء من الكتاب قد لا ينسحب بالضرورة على كل ما ورد من أفكاره.
ولا يفوتني أنّ المؤلف قد التمس من القارئ في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه ألا يجّزأ قراءته؛ لتسلسل موضوعات كتابه، وبحمد الله طالعت الكتاب كما رغبت المؤلف، ولكن الحديث عنه هاهنا سيقتصر على جزء منه لحكم أنّ موضع الشاهد المراد متصل به.
والحق أنّ الكتاب مثير؛ طرح فيه مؤلفه تفسيرات لبعض مشاهد يوم القيامة؛ زعم أنها «علمية، بناءً على ما فهمه من معاني النصوص الواردة بشأن تلك المشاهد معتمدًا على دلالات اللغة وتفسيرات السلف لها؛ مقروءة على ضوء نظريات العلوم المعاصرة ذات الصلة.

الحديث» لمؤلفه محمد سعيد الحفيان[١] يكون مناسبًا للتمثيل به في هذا السياق.

تناولَ المؤلفُ، في هذا الفصل من كتابه، مسألة «النفخ في الصور» وتأوّل المراد منها باجتهاد من لدنه لم يسبق إليه في معناها، مستعرضًا في ذلك الآيات القرآنية المتضمنة للحدث الذي اعتبره أول مشاهد يوم القيامة، وهو كذلك.

وجدير بالذكر أنّ المؤلف اختط لنفسه منهجًا واضحًا استدعى من خلاله «المعاني» الجديدة التي قصدها من مدلولات تلك النصوص، أعني معنى «الصور»، ومدلول «النفخ»، عبر استقراء واسع للشواهد القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الثابتة مشفوعة بالدلالات اللغوية للمفردات، ثم محاولة فهم كل ذلك على وفق ما وصل إليه علم الفيزياء الحديث ونظرياته بهذا الخصوص[٢]✱.

والمؤلف في مسألتنا المذكورة، وبحسب منهجيته آنفة الذكر قد انتهى، بعد مقارنات مصبورة، إلى نتيجة مفادها أنّ «الصُّور» المذكور في الآيات القرآنية هو «قرن للشمس»- من جملة قرونها - وهي النتوءات الديناميكية مدببة الرأس التي تنشأ من طبقة الكروموسفير في الشمس، وتلك النتوءات قد تم الكشف عنها عام ١٨٧٧م على يد الفلكي الإيطالي «بيزوميشي»[٣] فهي تمثل عند المؤلف «حقيقة» فيزيائية، وأورد «للصُّور» المذكور صورة رسم مخروطي الشكل يشبه «القرن»، وقال إنّ للشمس قرونًا عديدة متفاوتة الحجم، ومن بينها قرون عملاقة تمتد في الفضاء إلى ارتفاع يتراوح بين (٢٨٠٠٠ - ٤٣٠٠٠) كلم؛ وقاعدته تصل إلى (٢١٦٠٠) كلم.

١- ينظر: محمد سعيد الحفيان: هل جهنم ثقب أسود، القيامة في ضوء العلم الحديث، شركة مطابع السودان للعملة، ط٤/ ٢٠١٤م.
والكتاب طبع أربع طبعات في غضون خمس سنوات فقط! الأمر الذي يدل على انتشاره، وهو ما يعزز فكرة تقويم ما قد يُرى فيه من هنات منهجية.

٢- ينظر: المرجع نفسه. الصفحات (١٣- ٢٤)،

✱ أفرد المؤلف فيها فقرة، موسعة ومفصلة بوضوح، كشف فيها منهجيته في تفسير الآيات.

٣- ينظر: المرجع نفسه. صفحة (١٣١).

وقال إنّ «صوت الصُّور» الذي يمثلُ النفخة الواردة في الآيات الكريمة ما هو إلا «موجات الصدمة الصوتية» التي تحدث نتيجة الانفجارات المدوية داخل طبقات الشمس...إلخ**[1].

إذن المؤلفُ يرى أنّ «الصُّور» الوارد ذكره في القرآن في نحو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ سورة الزمر: الآية (٦٨)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ النبأ: الآية (١٨)، وغيرهما من الآيات، هو عبارة عن «قرن يخرج من الشمس» يشبه في صورته الصورة المعهودة للقرن، وكذلك «النفخ في الصور» عنده مفسر بالصوت الذي تحدثه موجات الصدمة الصوتية الناتج من الانفجارات داخل الشمس.

والمؤلف في سبيل سعيه للمطابقة بين «الحقيقة» العلمية المكتشفة مع النصوص الشرعية التي ورد فيها لفظ «الصور»، و»النفخ فيه» قد اتبع منهجية بحثية سليمة في الظاهر، حيث سرد النصوص واستقرأها، سواء من القرآن الكريم أو السنة النبوية، واتبع ذلك بتتبعه للدلالات اللغوية الواردة في معاجم اللغة للفظي «القرن، والصور»، ولفظ «النفخ» وتحليلها تحليلًا معجميًا، وهذا مما يحمد لله.

غير أنه - في رأي الباحث - أُتي من قِبل «استنتاجاته» المسبقة، والتي تسربت، أو أقحمها هو، ضمن تحليلات أدلة بحثه! وهذا يجافي منهج البحث العلمي المحايد. فضلًا عن أنّ استنتاجاته المسبقة كانت تنطلق من «مقدمات» غير مسلّم بها! وهذه كذلك مغالطة منهجية.

ولنستعرضُ جانبًا من طريقة حجاجه في تقرير ما رآه في هذه المسألة، ولأنَّ المواضعَ عديدةٌ أكتفي بإيراد ثلاثة نُقول من كلامه ثم إتباع كلٍ منها ببعض الملاحظات المنهجية تكشف عن مدى الغلط الذي واقعه المؤلف من حيثُ لا يدري:

** هذا ملخص ما ذكره المؤلف في المسألة. ينظر: المرجع نفسه، الصفحات (١٢٣-١٥٧).

الموضع الأول:

يقولُ المؤلفُ: «...ونحن نعلم أنّ الصوتَ لا يأتي من فراغ فلا بدَّ من وجود مصدر له، بمعنى آخر أنّ هناك شيئًا ما ينفجر عندما ينفخ في صوره فيأتي هذا الصوت الصاعق المدمر! فما الذي ينفجر إذن؟ للإجابة على هذا السؤال المحوري نذهب إلى السنة مفسرة القرآن، ثم أورد حديث عبد الله بن عمر... إلخ»[١]✸.

التعليق على هذا النص:

- تفسيره وعزوه لمصدر الصوت لشيء ما «ينفجر» لا يسّلم به، نظرًا لعدم وجود دليل على أنّ شيئًا ما ينفجر فيسبب ذاك الصوت الصاعق، ما يعني أنّ المؤلف، في هذا الموضع، ربما قد اختلسه حسه الباطن وساقه إلى حيث معلومة ومسلّمة سابقة في ذهنه أقحمها ضمن نقاشه للأدلة وضمّنها تقريراته تحكّمًا[٢] دون أن يورد لها برهانًا، وهذا مسلك في الجدال غير سليم.
- ثم إنّ طرحه سؤاله المذكور غير منطقي أيضًا، لأنه مبني على فكرة الانفجار القائمة سلفًا في ذهن مؤلف الكتاب! والبحث العلمي - وإنْ أجاز طرح الاحتمالات بوصفها فرضيات بحثية - إلا أنه لا يجيز للباحث أن ينساق وراء أيٍّ منها أو إفراد إحداها بتأييد أو رجحان إلا ببرهان حاسم، وهو ما لم نره في اجتهاد الباحث إزاء المسألة.

١- المرجع السابق، صفحة (١٢٢).

✸ إنّ مما يُستغرب له أنّ المؤلف لم يلتزم بمنهجيته في هذا الموضع إذ لم يأتِ بحديثُ أبي سعيد ﷺ الآتي ضمن الرد، لكن لعله لم يطلع عليه.

٢- التحكّم: هو إلزام الحجة من غير دليل، وهو باطل.
ينظر: فواتح الرحموت: عبد العلي محمد نظام الدين الأنصاري، تح عبد الله محمد، دار الكتب العلمية، (٢ / ١١٤).

- المؤلف في محاولات كشفه عن دقة معناه «الاجتهادي» لجأ كذلك إلى الاستشهاد بالسنة النبوية وأورد حديث: (مَنْ سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَت)[1]، وهذه منهجية المؤلف؛ حفاوته بالسنة النبوية كأصل تشريعي، ودأبه على ذلك في جملة بحثه، أنه يحاول الاستقراء والتتبع باستقصاء النصوص ذات الصلة بموضوعه، لكن لست أدري لماذا اكتفى بالذهاب لحديث ابن عمر المذكور وغاب عنه، أو ربما أسقط من جملة «استقرائه»، حديثًا مهمًا هو أولى من حديث ابن عمر في دلالته على المعنى؟ إذ كان بمقدور ذاك الحديث أن يضع حدًا لاسترسال المؤلف في تقرير ما فهمه من معنى الصُّور والنفخ فيه، إنه حديث قدّم تفسيرًا واضحًا لتلك المسألة، سواء في تصوير «الصور» أو «تفسير مصدر صوت الصور» أعني بذلك حديث أبي سعيد الخدري أنّ رسول اللهﷺ قال: (كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ وحنى جبهتَه وأصغى سمعَه ينتظر متى يؤمر بالنفخِ فينفخ)[2].

فهذا الحديثُ قد يعدّ نصًا* في محل النزاع، فلا يُحتاج مع جلاء معناه إلى كثير من التأويلات التي تفضَّل به المؤلف، «فالصور» بحسب نص الحديث وظاهر دلالته هو بوق حقيقي؛ خلقه الله تعالى في الأزل، ربما قبل خلق الشمس ذاتها ثم الحديث يفصح عن مهمة خلق «الصور» التي أوكل إليها ملكًا واحدًا بعينه - قيل هو إسرافيل- اختصه الله لإنجاز مهمة النفخ في صُوره، فتهيأ المَلك منذ تلك اللحظة والتقمه واضعًا إياه في فمه لينفخ فيه فيخرج الصوت المدمر

١- رواه الترمذي عن ابن عمر، كتاب التفسير، تفسير إذا الشمس كورت، حديث (٣٣٣٣)، وقال: حديث حسن غريب.

٢- رواه الترمذي عن أبي سعيد. باب ما جاء في شأن الصور، ح رقم (٣٢٤٣)، قال: حديث حسن.

* مصطلح «النص» في علم أصول الفقه هو ما كان له معنى واحدًا، أو ما دل على معناه دلالة لا يتطرق إليها احتمال التأويل، وهو قسيم الظاهر وهو ما كان له معاني محتملة. ينظر: بدر الدين الزركشي. البحر المحيط، تحقيق محمد تامر، ط / ٢٠٠٠، دار الكتب العلمية - بيروت، (٥ / ٩٢).

للكون بحسب النفخات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كما هو مثبت ضمن العقيدة الإسلامية[١].

فمع كل هذه الإفادات والدلالات التي اكتنز بها النص الحديثي الشريف تكون قيمة اجتهادات المؤلف - بخصوص المسألة - مشكوكًا فيها.

لكن لا يُدرى عن المؤلف هل استقراؤه للأحاديث كان ناقصًا؛ فلم يطلع على حديث أبي سعيد هذا فيكون معذورًا، أم إنه غضّ عنه الطرف بعد اطلاعه عليه وعلمه بما فيه؟ هاهنا يكمن المشكل المنهجي الذي يفسد عليه تمامًا نتيجة ما انتهى إليه في المسألة، ويعدم قيمة اجتهاداته؛ كونها أتت في مقابل النص، ولا اجتهاد مع النص، كما تقرر في قواعد أصول الفقه.

الموضع الثاني:

يقولُ فيه المؤلفُ: «...فإذا أثبتت الآيات أنّ هناك تلازمًا زمانيًا بين تكوير الشمس والنفخ في الصور فهل يوجد ما يدل على أنّ هناك تلازمًا مكانيًا بينهما؟ هذه الأسئلة مهمة جدًا وليس أمامنا من معين للإجابة عليها إلا استنتاجنا السابق من أنّ النفخ في الصور يتزامن زمانًا مع تكوير الشمس ولربما دلنا هذا التلازم الزمني إلى أنّ الصورَ جزءٌ من الشمس...إلخ»[٢].

التعليق على هذا النص:

- المؤلف أورد هذا الكلام مباشرة بعد ذكره لحديث ابن عمر المتقدم الذي فيه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من سره...إلخ، فلو كان يقصد بالآيات آيات سورة التكوير فإنّ السورة الكريمة لم تشر إلى النفخ في الصور أصلًا لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ فضلًا أن يكون في آياتها ما يدل على التلازم بين

١- ينظر: محمد أحمد السفاريني. لوامع الأنوار البهية، مؤسسة الخافقين، ط٢ / ١٩٨٢، (٢ / ٣٧).
٢- محمد الحفيان: هل جهنم ثقب أسود. ص (١٢٣).

التكوير والنفخ! فكيف جاز للمؤلف أن يستهل كلامه بهذا «الإثبات» الذي لا وجود له إلا في ذهنه؟ فإذا لم تصح المقدمة بطلت النتيجة! فعليه إنّ ما توقعه من وجود التلازم المكاني بين التكوير والنفخ لن يصح أبدًا، ومن ثم بطلان نتيجة النتيجة التي انتهى إليها وهي «كون الصور جزءًا من الشمس».

- هل في قول المؤلف الذي ختمنا به النقل عنه: «ولربما دلنا هذا التلازم الزمني إلى أنّ الصور جزء من الشمس»، هل يتضمن ما يدل على أنّ المؤلف متلبس بقناعة يحاول سوق البرهان إليها قسرًا؟

الموضع الثالث:

المؤلفُ بعد أنْ تتبعَ معنى كلمة «صور» في بعض أهم المعاجم اللغوية قال: «يفهم من هذه النصوص اللغوية أنّ كل ما ينبت بقوة في رأس كل شيء يسمى قرنًا، ...إذن ما تجمع لنا من معلومات حتى الآن أنّ الصُّوْر شيء ينبت بقوة في رأس شيء ما...إلخ»[1].

التعليق على هذا النص:

حسنًا فعل مؤلف الكتاب حينما اعتمد كعادة منهجيته على دلالات اللغة العربية للمفردات محل البحث، وهي وإنْ كانت خطوة منهجية جديرة بالإشادة غير أنها أتت متأخرة بالنسبة لمسألة تفسير «الصور»، وفي غير موضعها، فلو لم نجد غير الفزع إلى معاجم اللغة طالبين منها المعنى المراد «للصور» لكان صنيع المؤلف هو عين الصواب، أما وقد سُبقت اللغة بالشرع في بيان مدلول اللفظ المذكور فالمصداقية المنهجية للاعتماد على اللغة العربية يتعين أنْ تتأخرَ إلى حيث الاستعانة بها بعد أن تعيل اجتهاداتنا في الكشف عن معاني النص الشرعي ومراداته من ظاهر

١- المرجع السابق، ص (١٢٦).

عبارته لاسيما وموضوع البحث شأن غيبي وعالم الغيب تناولته الشريعة بنصوص محكمة وواضحة بظاهر عبارتها الأمر الذي ينتفي معه الفزع إلى التأويل، مؤلف الكتاب ههنا يشيرُ إلى القاعدة الأصولية أنه متى تعارضت الحقيقة الشرعية مع الحقيقة اللغوية في أمر شرعي فإنّ المعوَّل هو الحمل على الحقيقة الشرعية أولًا ما لم تتعذر فيُلجأ حالئذٍ إلى معاجم اللغة(١).

فالنبي (صلى الله عليه وسلم)، كما يقول ابن تيمية: «قد بَيَّنَ المرادَ من هذه الألفاظ بيانًا لا يُحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك»(٢)، وقال «رحمه الله»: «والاسم إذا بيّنَ النبي (صلى الله عليه وسلم) حدّ مسماه...عُرف مراده بتعريفه هو (صلى الله عليه وسلم) كيف ما كان الأمر»(٣).

ولمزيد تأكيد القاعدة الأصولية المذكورة فقد أورد أبو عبيد في معنى «اشتمال الصماء» معنى له عن الأصمعي، وأردفه بذكر قول الفقهاء في بيان كيفية ذلك، ثم علق أبو عبيد بعدهما بقوله: «والفقهاء أعلم بالتأويل في هذا، وذلك أصح معنى في الكلام»(٤).

وهذا أصلٌ مهمٌ في الجدل؛ والتقيد به جملة يعد حاجة منهجية ملحة لمحاصرة الاختلافات الشاذة أو تجنب مواقعة التحريفات لمفاهيم الشريعة المفسَّرة من لدن المشرع نفسه، هذا إذا افترضنا التعارض وعدم إمكان تقديم الحقيقة الشرعية على

١- ينظر: محمد الأمين الشنقيطي: مذكرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط٥ / ٢٠٠١م، (١ / ٢٠٩).

٢- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء- المنصورة، ط٢ / ١٤٢٢هـ، (٧ / ٢٨٧).

٣- المرجع السابق: (١٩ / ٢٣٦).

٤- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: فتح الباري، تحقيق مجموعة من المحققين، مكتبة الغرباء -المدينة المنورة، ط١ / ١٩٩٦م، (٢ / ٣٩٨).

الحقيقة اللغوية لكونهما تواردتا على معنى واحد معًا كما هو مقرر، فكيف والحال أنه لا تعارض بينهما أصلًا! ما يعني أنَّ المؤلفَ قد جنف فيما ذهب إليه، في هذه المسألة، وكال جزافًا، غفر الله لنا وله؛ فقد بذل جهدًا مشكورًا، والكمال عزيز.

الخاتمة

هذا البحثُ في جملتِهِ ناقشَ أفكارًا ورؤى وردتْ في سياقات بحث عن معاني تجديدية، طرحها بعضُ العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا، وهي تتعلق بمحاولات لتفسير أو بيان معانٍ لآيات من كتاب الله العزيز، وذلك بتمحيص ما قيل من خلال مقاربته بأداتي دلالة السياق، والإعجاز العلمي للقرآن، وهما من جملة أدوات تفسير القرآن العظيم.

وقد كانت رحى التقويمات الناقدة، الوارد ذكرها في طية هذا البحث لبعض تلكم الاجتهادات مما له صلة بهاتين الأداتين، تدور حول غرابة ما طُرح من الرؤى التجديدية أو جنوح بعضها عن الجادة، لجهة أنّ بعض أرباب تلك الرؤى لم يتقيد بما يجب أن يتقيّد به كل مفسر من أدوات التفسير المتعارف عليها.

وانتهى الباحثُ إلى نتائجَ تُلخَّصُ في الآتي:

- تعدّ «دلالة السياق» أداة كاشفة للمراد المحتمل؛ وهو مبيِّنٌ لا غنى عنه في تجلية بعض معاني آيات القرآن الكريم، ومن أهمله لابد أن يواقع الغلط في رأيه أو المغالطة في جداله.

- كتاب «هل جهنم ثقب أسود»، رغمًا عن أفكاره المدهشة جملة، إلا أنّ المعاني الجديدة التي طرحها مؤلفه لآيات قرآنية تتعلق بحقيقة «جهنم» على أنها المعنى المكافئ للحقيقة الفيزيائية «الثقوب السوداء»، هي اجتهادات مشكوك فيها،

وهي وإن كانت نتيجة بحث ومقارنات مضنية إلا أنها قد أفرغت جملة المنهجية العلمية للكتاب عن مضمونها، وأفقدتها قيمتها المنهجية الحاكمة، فما انتهى إليه الأستاذ من نتائج إزاء المطابقة بين آيات جهنم وبين الثقوب السوداء مختل منهجيًا من حيث مآخذه اللغوية فضلًا عن تجاوزه لأصول الاستدلال المتعارف عليه في المدونات الأصولية، كما ورد تفصيل ذلك في طية هذا البحث.

- أمة القرآن مطلوب منها، في كل حين، الجد في تسخير معطيات وأدوات الفهم السليم لتكسب من نص الكتاب معنى يرشد الضالين؛ ويهدي سعي المكلفين في الحياتين الأولى والآخرة للتي هي أقوم، ولا عتب عليها في هذا السبيل أن تسترشد بأي برهان أو بينات طالما صحت لا سيما يقينيات المكتشفات العلمية. ومن الخطأ المنهجي الإباء، بلا مبرر مبرهن، لكل ما من شأنه أن يفيد معنى سليمًا لنص آيات القرآن الكريم.

- منهجية الانفتاح المذكور على المعارف وأدوات التفسير الصحيحة يجب أن لا يغيب عن روعها أنّ نزعتها في الإفادة من الجديد الذي صح مؤسسة على الموروث من المأثور الصحيح، إذ من الخطأ المنهجي أيضًا التنكر لقواعد العلوم الراسخة.

- بعض الاتجاهات المحدثة في سبيل محاولاتها لفهم آيات القرآن الكريم قد تخطت ما كان يجب عليها احترامه من القواعد، فأتت بالعجائب، فكأنها لا أرضًا قطعت ولا ظهرًا أبقت.

- تعاطي القراء بحذر وبصيرة مع مثل تلك المسالك لهو من أوجب الواجبات، صيانة لكتاب الله من أن يُفهم منه ما لا يليق. وأما التحذير منها فهو شرف نطق به الأثر، فقد روى الحافظ ابن عبد البر بسنده عن إبراهيم بن عبد الرحمن

العذري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين؛ وتأويل الجاهلين؛ وانتحال المبطلين»[1].

١- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري: التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤١٩هـ، (١ / ٤٩).

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن موسى الشاطبي:
  - الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق عبد الله دراز وابنه، دار الكتب العلمية، (د.ت).
  - الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق سلمان حسن مشهور. دار بن عفان ط١ / ١٤٠٧هـ.
- أحمد بن إدريس القرافي: الفروق، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤١٨هـ.
- أحمد بن تيمية:
  - مجموع الفتاوى، إعداد محمد عبد الرحمن بن قاسم. طبعه الملك فهد.
  - مجموع الفتاوى. تحقيق عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء المنصورة، ط٢ / ١٤٢٢هـ.
- أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤٠٨هـ.
- خليل خلف بشير: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، بحث محكم نشر في مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد (٩)، عدد(٢)، ٢٠١٠م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، ط (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي بيروت، ط: ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: فتح الباري، تحقيق مجموعة من المحققين، مكتبة الغرباء، المدينة المنورة، ط١ / ١٩٩٦.
- عبد الرحمن بن سعدي:

- تيسير الكريم الرحمن، تحقيق عبد الرحمن المعلا، مؤسسة الرسالة، ط١ / ٢٠٠م.
- القواعد الحسان في تفسير القرآن، (دون بيانات نشر).

- أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: نوادر الإمام ابن حزم، مطابع الفرزدق- الرياض، ط١ / ١٤٠٥هـ.
- علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ): تصحيح: محمد علي شاهين، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ / ١٤١٥هـ.
- عبد العلي محمد نظام الدين الأنصاري. فواتح الرحموت، تح عبد الله محمد، دار الكتب العلمية.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري: التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد، تحقيق محمد عطا. دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤١٩هـ.
- ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر:
- إعلام الموقعين، دار الجيل، ط / ١٩٧٤.
- بدائع الفوائد، تحقيق محمد الإسكندراني وعدنان درويش. دار الكتب العربي ط١ / ١٤٢٢هـ.
- ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٣، (د. ت).
- محمد أحمد السفاريني: لوامع الأنوار البهية، مؤسسة الخافقين، ط٢ / ١٩٨٢م.
- محمد الأمين الشنقيطي: مذكرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥ / ٢٠٠١م.
- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.
- محمد سالم صالح: أصول النظرية السياقية الحديثة.، (بدون بيانات نشر).

- محمد سعيد الحفيان: هل جهنم ثقب أسود، القيامة في ضوء العلم الحديث، شركة مطابع السودان للعملة، ط٤ / ٢٠١٤م.
- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان، طبعة البابي الحلبي، (د.ت).
- محمد بن محمد الحطاب: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط٣ / ١٩٩٢م.
- محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ / ١٩٩٦م.
- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د.ت).

References:

- The Holy Quran.
- 'Iibrahim bin Musaa alshaatibia.Almuafaqat fi 'usul al'ahkam, tahqiq eabd allah diraz waibnih, dar alkutub aleilmiat.
- And: Almuafaqat fi 'usul al'ahkam. tahqiq salman hasan mashhur. dar bin eaffan t1/1407h.
- 'Abu bakr bin Alearabi.'Ahukam alquran, tahqiq muhamad eabd alqadir eata, dar alkutub aleilmiat, t 1/1408 h.
- 'Abu eabd alruhmin bin eaqil alzzahiri.Nawadir al'imam abn hizm, matabie alfrzudq- alriyad,, t 1/1405 h.
- 'Abu eumar Yusif bin eabd albar alnumraa.Altamhid lamaa fi almawta min al'asanid, tahqiq muhamad eata. dar alkutub aleilmiat t 1/1419 h.
- Abdul-Ali Muhammad Nizamuddin Al-Ansari. Fawteh Al-Rahmout, Under Abdullah Muhammad, dar alkutub aleilmiat.
- 'Ahmad bin 'Iidris alqarafi. alfuruq, tahqiq khalil almnswr, dar alkutub aleilmiat t 1/1418 h.
- 'Ahmad bin Taymia.Majmue alfatawaa. 'iiedad muhamad eabd alrahmin bin qasm. tbeh almalik fahd and: Majmue alfatawaa. tahqiq eamir aljazar wa'anwar albaz, dar alwafa' almansurat, t 2/1422 h.
- Ali bin Muhammad bin Ibrahim bin Omar, known as al-Khazen (d.: 741 AH), corrected by: Muhammad Ali Shaheen, for the section on interpretation in the meanings of revelation, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - Beirut, Edition 1/1415 AH.
- Iiismaeil bin kthyr aldamshqi. Tafsir alquran aleazim, tabeat jameiat 'iihya' alturath al'iislamii bialkuit.
- Eabd alruhmin bin 'Ahmad bin Rajab alhanbali. Fath albari, tahqiq majmueat min almuhaqiqin, maktabat alghurba', almadinat almunawarat, t 1/1996.
- Eabd alruhmin bin Saedi.Alquaeid alhisan fi tafsir alquran, bidun bayanat nushr.
- Abdul Rahman bin Saadi. Tayseer Al-Karim Al-Rahman, investigation by Abdul Rahman Al-Mualla, Al-Risalah Foundation, 1/200.
- Muhamad 'abu bakr bin qiam aljawzia.Badayie alfawayid. tahqiq muhamad al'iiskundiranii waeadnan darwish. dar alkutub alearabiu t 1/1422 h.

- Muhamad ‘Ahmad alsafarini. Lawamie al’anwar albahiat, muasasat alkhafiqin, t/21982.
- Muhamad al’amin Alshanqiti. Mudhakirat fi ‘usul alfaqih, maktabat aleulum walhukm, almadinat almunawarat, t 5/2001 m.
- Muhammad Al-Taher Bin Muhammad Bin Muhammad Al-Taher Bin Ashour, Tunisian Publishing House - Tunisia, 1984 AH.
- Muhamad bin ‘abi bikr bin qiam aljawzia.’lielam almuaqiein, dar aljil, t/1974.
- Muhamad bin Muhamad alhitab. Mawahib aljalil fi sharah mukhtasir khalial, dar alfikr, t 3/1992.
- Muhamad salim salih. ’Usul alnazariat alsiyaqiat alhadithat. without posting data.
- Muhammad bin Ahmed bin Othman Al-Dhahabi. The History of the Flags of the Nobles, Dar Al Hadith - Cairo, 1427 AH-2006AD.
- Muhamad saeid alhafyan.Hil jahanam thaqab ‘aswad, alqiamat fi daw’ aleilm alhadith, sharikat matabie alsuwdan lileamlat, t 4/2014 m.
- Muhamad eabd aleazim Alzarqani. manahil aleurfan, tabeat albabi alhalbi.
- Muhammad Nasir al-Din al-Albani. Al-Sahih Series, Knowledge Library, Riyadh, 1st Edition/1996.
- The Arabic Language Academy. Al-Waseet Lexicon, 3rd ed. (DT).
- Muhammad bin Muhammad Al-Hattab, The Talents of Galilee in Mukhtasar Khalil’s Explanation, Dar Al-Fikr, 3rd Edition/1992.
- Muslim bin Al-Hajjaj. Sahih Muslim, Edited by Muhammad Fouad, House of Revival of Arab Heritage - Beirut.

Contents



UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
AL WASL UNIVERSITY

AL WASL UNIVERSITY JOURNAL

Specialized in Humanities and Social Sciences

A Peer-Reviewed Journal

ISSUE NO. 63
Rabi al Akhar 1443H - December 2021CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"** under record No. 157016
e-mail: research@alwasl.ac.ae, awuj@alwasl.ac.ae



UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI

AL WASL UNIVERSITY

Al Wasl University Journal

Specialized in Humanities and Social Sciences

A Peer-Reviewed Journal - Biannual

(The 1st Issue published in 1410 H - 1990 C)

December - Rabi al Akhar

2021 CE / 1443 H





Email: research@alwasl.ac.ae

Website: www.alwasl.ac.ae